دعاء نوح في القرآن الكريم

عـــرض ودراســـة

دكتور

محمد عبد الجليل حسن محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية الدراسات الإسلامية بنين

بأسوان — جامعة الأزهر

مقدمة

إن الحمد لله تعالي نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور النفس ومن سيئات الأعمال، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علي سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي، أشرف الخلق وسيد الأنام، الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير، صلي الله عليه وعلي آله وصحبه في الأولين والآخرين، صلاة تدوم بدوام الله، وتبقي ببقائه، لنسعد بها في جناته، ونحظي بها في رضوانه — آمين -.

ويعد...

فإن الله تبارك وتعالي جعل الدعاء من الإيمان، وأساسا من أسس العبادة، وأصلا من أصول الدين، وهو الطريق إلي تحقيق المطالب، وسبيل إلي الوصول إلي الأهداف والمقاصد، وبه يظهر العبد خضوعه لربه، وحاجته إليه، وافتقاره إلي جنابه.

وقد ذكر القرآن الكريم في سوره وآياته صوراً عدة من أنواع الدعاء للأنبياء والمؤمنين والعباد والصالحين، وبان من طريقة كل داعٍ لهفته وحاجته إلي عون ربه تعالي، ورجاء مدده وعونه، وأن يجعله عنده مقبول التضرع، مستجاب الدعوة.

وبما أن القرآن العظيم مليء بصيغ الدعاء وأنواعه التي بلغت كثرة، فإن الإلمام بكل ما حواه هذا الجانب فيه من الصعوبة والمشقة ما فيه، ويحتاج إلي جهد كبير، وعمل مطول، لذا قصدت أن يكون عملي هنا منصبا علي واحد من أنواع الدعاء في القرآن —بصفة عامة- ألا وهو: "دعاء الأنبياء" —عليهم الصلاة والسلام- الذين جعلهم الله تعالي مصابيح الهدي، ومصادر النور، ومنارات الخير في هذا الوجود، وبهم نجي الله تعالي المؤمنين من أهوال النار، وأضاء لهم طريقهم إلي الجنة بما فيها من سعادة ورضوان.

وبما أن هذا الباب متشعب الأنواع، مترامي الأطراف، ويحتاج إلي مزيد من الجهد أيضاً لذا اقتصرت في بحثي هذا علي دراسة دعاء نبي واحد من أدعية أنبياء الله تعالي الوارد ذكرهم في القرآن، ألا وهو: "دعاء نوح -عليه السلام-"، لما اشتمل عليه هذا الدعاء من صيغ عدة، وأساليب مختلفة، في مواطن كثيرة من سور القرآن العظيم، لنقف علي ما هية كل موضع فيه، ونبين نوعه ومقصوده منه، وما حمله من معانٍ ومغازٍ في طياته، وماذا قال المفسرون في تفسيره، لأن هذا الموضوع له من الأهمية الكبري ما له، لنري كيف استجاب الله تعالي -لنوح دعائه في مواطن عدة علي النحو الذي أراده سبحانه، وبما يرضي نبيه نوحاً علي أحسن ما تكون الاستجابة، وإن كان هناك ثمة ما يدعو إلي عدم استجابة الله تعالي دعاءً ما لسبب من الأسباب، بين له الحكمة في ذلك، حتى يطمئن قلبه، وترضى نفسه ويستريح فؤاده... إلخ.

دوافع البحث:

١- حين قراءتي لكتاب الله تعالي لفت نظري إلي أن هذا النوع من الدعاء له من الأهمية الكبري ما له — كغيره من أدعية الأنبياء عليهم السلام في القرآن- من حيث أنه يحمل من الأسرار القرآنية، والدرر التنزيلية الكثير والكثير، والتي يجب البحث عنها، والوقوف عليها، وكشف اللثام عن ما تحمله الآيات من المعاني، وتحديد ما فيها من دقائق ومغازٍ..

٢- بيان الفرق بين صيغ الدعاء عند نوح -عليه السلام- في مواطن عدة من القرآن، مع تحديد الهدف من كل دعاء دعاه، حسب المواقف المتعددة التي تعرض لها في عمره الطويل الذي قارب الألف سنة.

٣- بيان أهمية الدعاء علي وجه العموم، وأنه طريق سهل معبد إلي الله تعالي -لتحقيق الآمال، وبيان ما كان عليه نوح والأنبياء عموما- عليهم صلوات الله وسلامه- من

صدق في أعاملهم، وإخلاص في عبادتهم لربهم تعالي، ولجوئهم إليه في كل حال، وشكواهم إليه -سبحانه وتعالي- ما كانوا يلاقونه من أقوامهم من صنوف التكذيب والإعراض، وما يلحق ذلك من تعذيب وتنكيل.

٤- دعوة الأمة وإرشادها إلي أخذ العبرة والعظة من الأنبياء -عليهم السلام- وفي مقدمتهم نبينا محمد -ﷺ- فيما كانوا عليه من ورع وتقوي وإخلاص ووفاء وتعلق كامل بربهم -تبارك وتعالي- وعدم الغفلة عنه ولو لحظة أو أقل من ذلك.

منهجي في البحث:

قام منهجي في هذا البحث علي الأسس الآتية:

١- تخريج الآيات ببيان موضعها من السورة ورقمها فيها، مع تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، تخريجاً يتناسب مع طريقة البحث ومنهجيته في التفسير.

٢- شرح الغريب في نصوص الآيات القرآنية الوارد فيها ذكر دعاء نوح -عليه السلام- بما يفي بالغرض، ويعين المطلوب.

٣- الحرص التام علي أن يكون هذا البحث واضح الصورة بين المقصد ظاهر الدلالة في الوقوف علي الأهداف الأصلية لكل أدعية نوح الواردة في القرآن العظيم، حتى نكون علي قدر من العلم والمعرفة بماهية كل نوع منها وبيان الهدف من ورائه.

٤- التنبيه على أن نوحا -عليه السلام- إنما كان دعاؤه ربه تعالي علي قومه بالهلاك والدمار إنما هو قائم علي أسباب ولوازم دعت إليه، جعلته يكون علي هذا الوجه خصوصاً بعد أن مكث فيهم زمنا طويلاً دون جدوي لدعوته فيهم.

خطة البحث:

اشتملت هذه الخطة علي مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة:

المقدمة : وفيها سبب اختياري لهذا الموضوع.

التمهيد : في معني الدعاء لغة واصطلاحاً وحقيقته وأهميته وشروطه وآدابه.

المبحث الأول: الدعاء في القرآن الكريم وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معاني الدعاء في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: حاجة الأنبياء إلي الدعاء وكيفية دعائهم ربهم تعالي وتعبد صيغ الدعاء عندهم-عليهم السلام-.

المبحث الثاني: دعاء نوح في القرآن وفيه مطالب:

المطلب الأول: طلبه الشفاعة لولده الكافر.

المطلب الثاني: نداؤه ربه تعالي طالباً النجاة والنصر علي الكفار من قومه.

المطلب الثالث: دعاؤه بالنصر على أعدائه.

المطلب الرابع: طلبة القضاء والحكم الإلهي بينه وبين قومه.

المطلب الخامس: سرعة إجابة الله الدعاء لنوح والثناء عليه.

المطلب السادس: دعاؤه ربه وشكواه إليه قومه طالبا الانتقام منهم والنصر والتأييد له وللمؤمنين.

المطلب السابع: دعاؤه بإهلاك قومه وإفنائهم من الوجود ودعاؤه بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين عامة.

الخاتمة: في نتائج هذا البحث.

وصلي الله علي سيدنا ومولانا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

كتبه

د. محمد عبد الجليل حسن

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية

بنين بأسوان

تمهيد:

في معنى الدعاء لغة واصطلاحاً وحقيقته:

الدعاء في اللغة: هو في الأصل مصدر من قولك: دعوت الشئ أدعوه دعاءً، وهو أن تميل الشئ إليك بصوت وكلام يكون منك[1] قال العلامة ابن منظور في اللسان: "دعا الرجل دعواً ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة ودعوت فلاناً: أي صحت به واستدعيته[2] وأصله دعاوٌ لأنه من دعوت، إلا أن الواو لما جاءت متطرفة بعد الألف همزت[3] ثم أقيم هذا المصدر مقام الاسم – أي: أطلق علي واحد الأدعية- كما أقيم مصدر العدل مقام الاسم في قولهم: رجل عدل- ونظير هذا كثير[4].

والدعاء هو: السؤال والطلب، سواء كان بلسان الحال أو بلسان المقال، فالدعاء ينقسم إلي قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، فالأول: هو سائر الطاعات من تسبيح وتحميد وتهليل وغير ذلك، لأن عامل ذلك هو سائر في المعني. والثاني: هو دعاء مسألة وهو: طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر[5].

وأما الدعاء في الشرع: فقد اختلف فيه العلماء اختلافا كبيراً، فعرفوه بعدة تعريفات منها: قول الخطابي: (معني الدعاء: استدعاء العبد ربه -ﷻ- العناية واستمداده منه المعونة ومنها قول ابن منظور: (هو الرغبة إلي الله -ﷻ-)[6].

---

(1) انظر مقاييس اللغة ٢٧٩/٢- المفردات للراغب ١٥٨.

(2) لسان العرب مادة: "دعو".

(3) المصدر السابق.

(4) شأن الدعاء للخطابي ص٣.

(5) انظر المصادر السابقة.

(6) لسان العرب مادة: "دعو" – وانظر شأن الدعاء للخطابي ص٤.

وحقيقته: إظهار الافتقار إلي الله تعالي، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه: معنى الثناء علي الله -ﷻ- وإضافة الجود والكرم إليه[1].

وقال الحافظ: (الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلي الله والاستكانة له)[2].

أهميته وشروطه: من خلال قراءة النصوص التي وردت في القرآن الكريم وبخاصة في آيات دعاء الأنبياء -عليهم السلام- بصفة عامة، يمكن لنا أن نستنتج ونستخلص أن للدعاء شروطاً ولوازم يجب توافرها في الدعاء حتى يأخذ طريقة إلي الاستجابة عند المجيب سبحانه، فمثلاً في قوله تعالي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3] وفي قوله تبارك اسمه: ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[4] وقوله ﷻ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[5] وقوله سبحانه وتعالي: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[6].

---

(1) شأن الدعاء للخطابي ص٤.

(2) فتح الباري ٩٥/١١.

(3) سورة البقرة ١٨٦.

(4) سورة النساء ٣٢.

(5) سورة الأنبياء ٧٦.

(6) سورة الأنبياء ٨٣، ٨٤.

ففي هذه النصوص القرآنية الكريمة وغيرها: توضيح مدي أهمية الدعاء ومكانته في الإسلام، وأنه لابد للمؤمن من أن يدعوا ربه تعالي؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان ولوازمه التي يظهر العبد فيها حاجته إلي ربه تعالي؛ ورغبته إليه، وعوزه إلي جنابه.

قال الزرقاني في شرحه علي المواهب: (الدعاء من أشرف الطاعات، أمر الله به عبادة فضلاً وكرماً، وما تفضل بالإجابة فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1])[2].

هذا: ويمكن لنا إجمال الشروط التي يجب توافرها في الدعاء حتى يكون أهلاً للاستجابة علي النحو التالي.

أولاً: شرط رباني: أي أنه يتعلق بالرب -سبحانه وتعالي ما قدره في مشيئته، وما جعله في مكنون علمه، ونعني بذلك أن يكون الدعاء غير مخالف للحكمة الإلهية الكائنة في علمه تعالي، وألا يكون معاكسا لقضاء المشيئة الربانية التى قدرت سير العالم على نظام بديع، ورتبت تتابع الأسباب والنتائج والمصالح فيه ترتيبا فريداً لا نظير له ولا مثيل، بما كان وما كان وما يكون وما هو كائن إلى فناء الدنيا. وأن يعلم تمام العلم: أن الرغبة الإنسانية ليست هي التي تقرر سير الحوادث، أو أنها تحدث ما تشاء حسب ما ترغب أو تريد بعيداً عن تقديرات الحكمة الربانية والتوجيه الإلهي، كلا، بل كل شئ عنده بمقدار، ولا يقع في ملك الله إلا ما أراد الله، وحتى يكون الدعاء آخذا طريقه للإجابة يجب أن لا يخرج عن حدود المصلحة المقدرة في علم الله ﷻ وأنه لا ينفذ منها إلا ما قدر.

ثانياً: شرط ذاتي في شخصية الداعي: ونعنى به الهيئة النفسية، والكيفية الروحية والطهارة القلبية، التي يتوجه بها الداعي إلي الله ﷻ في دعائه من وجوب تحقق

---

(1) سورة غافر ٦٠.

(2) شرح الزرقاني ٤٤/٢.

الصدق والإخلاص، وإظهار الخضوع والذلة لله تعالي، والافتقار إليه، مع الثقة التامة به تعالي وبوعده في الإجابة.

فعند كينونة الإنسان الداعي علي هذه الحالة تكون الذات الإنسانية على درجة عالية من صفاء النفس، ونقاء القلب، وشفافية الروح، في تحقيق الصلة بالله تعالي وحسن العلاقة به والرضا بما أراد وقدر، وبهذا يكون الداعي علي أهلية كبيرة في رفع دعائه واستجابته، والتعامل مع فيوضات الرحمة الربانية، والفوز بالمنح والعطاءات الإلهية، بما يجلب النفع، ويدفع الضر.

ثالثاً: شرط موضوعي: ويقصد به تعامل الإنسان مع الأسباب والوسائل الطبيعية التي جعلها الله سبحانه سبباً في تنظيم الحوادث وسير الأمور، وعدم ترك الأخذ بالأسباب والاتكال علي مجرد الدعاء، لأن هذا مسلك لا يتوافق مع شرع الله تعالي، وسنة نبيه ورسوله -ﷺ- من وجوب الأخذ بالأسباب لتحقيق المقاصد والوصول إلي الأهداف.

رابعاً: كما يجب أن يعلم: أن الاستجابة لله، تعني الالتزام بتشريعاته، وتنفيذ ما أمر واجتناب ما نهى حتى يكون المؤمن الداعي على أهلية تامة إلي استجابة دعائه وتلبية ما يريد، حسب الحكمة الإلهية، والمشيئة الربانية.

آدابه: تتعدد آداب الدعاء وتتنوع بصورة تبهر العقول، وتدعوا إلى الإعجاب بالإسلام الحنيف وبشرائعه العظيمة، الدالة علي كمال منة الله تعالي علي المسلمين — بل على الدنيا بأثرها- بهذا الدين العظيم، وكريم تشريعاته وأحكامه.

ومن الممكن أن نحدد آداب الدعاء ونوجزها فيما يلي:

١- أن يتخير الداعي لدعائه الأوقات الشريفة: مثل وقت السحر من ساعات الليل، ويوم عرفة من أيام السنة، وشهر رمضان من أشهر العام، ويوم الجمعة من أيام الأسبوع، وهكذا.

٢- بدء الدعاء بالاستعاذة والبسملة وحمد الله تعالي والثناء عليه، والصلاة علي النبي -ﷺ- والاستغفار من الذنوب والآثام، وبعد سؤال الله تعالي الحاجات يختم الداعي دعائه بالصلاة علي النبي -ﷺ- تيمنا وتبركا.

٣- يحسن استقبال القبلة، ورفع اليدين عالياً بحيث يرى بياض إبط الداعي تأسيا بالنبي -ﷺ- حيث كان في دعائه يفعل ذلك. روي مسلم بسنده عن أنس قال: "رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه"[1].

٤- الثقة بالله تعالي في استجابة الدعاء واليقين بذلك: أخرج ابن ماجه وغيره عن أبي عثمان النهدي عن سلمان عن النبي -ﷺ- قال: "إن ربكم حيى كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً" أو قال: "خائبتين"[2] ثم يمسح الداعي اليدين والوجه في آخر الدعاء.

٥- التضرع إلي الله تعالي والخشوع له، والتذلل لجنابه سبحانه وتعالي.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء باب "رفع الإمام يده في الاستسقاء" حديث ٩٨٤ جـ١ ص٣٤٩- صحيح مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب "رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء" حديث ٨٩٥ جـ٢ ص٦١٢.

(٢) سنن ابن ماجة كتاب الدعاء باب "رفع اليدين في الدعاء" حديث ٣٨٦٥ جـ٢ ص١٢٧١- مسند أبي يعلى ١٤٢/٧- صحيح ابن حبان ١٦٠/٣- وانظر مسند الشهاب ١٦٥/٢- وتفسير القرطبي ٢٢٥/٧.

٦- عدم رفع البصر إلي السماء في الدعاء.

٧- عدم رفع الصوت فيه بل يجب أن يخفضه حتى يكون بين المخافتة والجهر.

٨- عدم تكلف ألفاظ السجع في الدعاء، لأن الله تعالي لا يحتاج إلى لسان فصيح، فهو يعامل عباده بالنيات والمقاصد.

٩- وجوب الاقتداء والتأسي بالأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- في أدبهم مع الله تعالي حين دعائهم وسؤالهم إياه ما يريدون، واختيارهم أفضل الأدعية لفظاً، وأوفاها معني، وأشملها مغزى، وأحسنها أسلوباً، وأفصحها بلاغة، حسب استطاعة الداعي في ذلك دون تكلف كما مر بيانه.

المبحث الأول

الدعاء في القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

معاني الدعاء في القرآن الكريم

ذكر العلماء في القديم والحديث أن للدعاء الوارد في القرآن العظيم عدة معان مختلفة ومتعددة يختلف تحديد معانيه بحسب الظروف والملابسات التي أحاطت بالآيات القرآنية، سواء كان نزولها بسبب أو ابتداء بغير سبب[1].

وقد ورد الدعاء في القرآن على وجوه عدة منها:

١- عبادة الله تعالى وطاعته والقربى إليه والإخلاص له: كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2] قال القرطبي: ("يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" أي" طاعته والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره)[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) انظر في ذلك: المفردات للراغب ص٣١٥-٣١٦- فتح الباري لابن حجر ٩٤/١١ ولسان العرب مادة "دعو"- كتاب الدعاء لمحمد بن إبراهيم الحمد ص٨-١٠.

(٢) سورة الكهف ٢٨.

(٣) تفسير القرطبي ٤٣٦/٦.

عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)[1] قيل في تفسيرها: "تدعون": تعبدون، وقيل: تدعونها آلهة من دون الله أي: الله[2].

٢- سؤال الله تعالى قضاء الحاجات وطلب العون منه: كما في قوله عز اسمه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[3].

قال الإمام أبو السعود في تفسير هذه الآية: (تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ما لا يخفي من تشريفه ورفع محله "فَإِنِّي قَرِيبٌ" أي: فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم، واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه، روي أن أعرابياً قال لرسول الله: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت: "أجيب دعوة الداع إذا دعان"[4] تقرير للقرب، وتحقيق له، ووعد للداعي بالإجابة "فليستجيبوا لي" إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم "وليؤمنوا بي" أمر بالثبات على ما هم عليه "لعلهم يرشدون" راجين إصابة الرشد أي الحق)[5] وقوله ﷻ: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[6] لأن المراد بالعبادة هنا: الدعاء، لأنه من أبوابها[7].

---

(١) سورة الأعراف ١٩٤.

(٢) تفسير القرطبي ٣٢٢/٧.

(٣) سورة البقرة ١٨٦.

(٤) لباب النقول في أسباب النزول ص٣٣- الطبري ١٥٨/٢، ١٥٩- ابن كثير ٢١٩/١- تفسير الجلالين ٣٨.

(٥) تفسير أبي السعود ٢٠٠/١، ٢٠١.

(٦) سورة غافر ٦٠.

(٧) تفسير البيضاوي ٩٩/٥.

٣- الاستغاثة بالله تعالى في الشدائد: كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[1]. والآية: تبكيت لهم "إن كُنتُمْ صَادِقِينَ" أن الأصنام آلهة، وجوابه محذوف أي: فادعوه "بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ" أي: بل تخضونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص[2].

٤- طلب التحدي باللفظ القرآني المعجز: كما في قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

قال العلامة الإمام الطبري: (هذا من الله ﷻ احتجاج لنبيه محمد -ﷺ- على مشركي قومه من العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضلالهم)[4].

٥- النداء: كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾[5] فـ "يَدْعُوكُمْ" هنا: أي: يناديكم إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج، وقيل: بالصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة[6] وكذا

---

(١) سورة الأنعام ٤٠، ٤١.

(٢) تفسير البيضاوي ٤٠٨/٢.

(٣) سورة البقرة ٢٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦٥/١.

(٥) سورة الإسراء ٥٢.

(٦) تفسير القرطبي ٢٧٥/١٠- وانظر البيضاوي ٤٥١/٣ بتصرف.

قوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)[1] أي: يناديك ويطلب لقاءك لتأخذ أجر سقيك لنا[2].

قال ابن كثير: (هذا تأدب في العبادة لم تطلبه مطلقاً لئلا يوهم ريبة بل قالت: (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) يعني: ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا)[3].

٦- توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه: كما في قوله تعالى: (قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)[4] فالآية الكريمة نزلت حين سمع المشركون رسول الله -ﷺ- يا الله، يا رحمن "فقالوا: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر، أو قالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة[5] والمراد على الأول: هو التسوية بين اللفظين بأنهما يطلقان على ذات واحدة وإن اختلف اعتبار إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق، وعلى الثاني: أنهما سيان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود وهو أجود لقوله: (أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه[6] وعليه: فالتنويع في الآية للتدليل على تعدد

---

(١) سورة القصص ٢٥.

(٢) انظر زاد المسير ٢١١/٦- النسفي ٢٣٣/٣- روح المعاني ٦٥/٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٨٥/٣.

(٤) سورة الإسراء ١١٠.

(٥) انظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص١٤٢- تفسير البيضاوي ٤٧٢/٣- تفسير أبي السعود ٢٠٠/٥.

(٦) تفسير البيضاوي ٤٧٢/٣.

الأسماء الحسني له تعالي ولا يدعي بها غيره، ويؤيده قوله بعدها (أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى)أي: هو الله وهو الرحمن[1]. قال العلامة ابن القيم في البدائع: (ليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلي هذا المعني يصح أن يكون في: (تدعوا) معني: تسموا، فتأمله، والمعني: أيا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم)[2] ومعني كونها أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم[3].

٧- الحث علي الشئ وطلب الإقبال إليه: كما في قوله ﷻ: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)[4].

والمعني: أي: آثر عندي من موافقتهن نظراً إلي العاقبة، وإن كان هذا مما تشتهيه النفس، وذلك مما تكرهه، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً: لأنهن خوفنه من مخالفتها وزين لها مطاوعتها أو دعونه إلي أنفسهن، وقيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان الأولي به أن يسأل الله تعالي العافية، ولذلك رد رسول الله -ﷺ- علي من كان يسأل الصبر[5].

قال الزجاج والنحاس: "أَحَبُّ إِلَيَّ" أي: أسهل علي وأهون من الوقوع في المعصية لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق[6].

---

(1) انظر معاني القرآن للنحاس ٢٠٦/٤- تفسير الواحدي ٦٥١/٢.

(2) بدائع الفوائد ٥/٣.

(3) تفسير النسفي ٣٠٤/٢.

(4) سورة يوسف ٣٣.

(5) انظر البيضاوي ٢٨٦/٣ بتصرف يسير.

(6) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٠٨/٣- معاني القرآن للنحاس ٤٢٣/٤، ٤٢٤- القرطبي ١٨٤/٩.

وقوله عز سلطانه: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)[1] فالله تبارك وتعالي لما ذكر وصف هذه الدار وهي دار الدنيا، وصف الآخرة فقال: إن الله لا يدعوكم إلي جمع الدنيا بل يدعوكم إلي الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أي: إلي الجنة، قال قتادة والحسن: السلام هو الله وداره الجنة، وسميت الجنة: دار السلام، لأن من دخلها سلم من الآفات، ومن أسمائه سبحانه: السلام[2].

وقال العلامة ابن كثير: (لما ذكر تعالي الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها: دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات فقال: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ))[3].

٨- المنزلة والقدر: كما في قوله تبارك وتعالي: (لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ)[4] قال الزجاج: (ليس له استجابة دعوة تنفع)[5] وقال غيره: ليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة، وقال الكلبي: ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة، وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلي عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلي عبادة البقر، فكانت تعبد ما كانت شابة، فإذا هرمت أمر بذبحها، ثم دعا باخري لتعبد، ثم لما طال الزمان قال: أنا ربكم الأعلي[6].

---

(1) سورة يونس ٢٥.

(2) انظر القرطبي ٣٢٨/٨- ابن كثير ٤١٤/٢.

(3) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢.

(4) سورة غافر ٤٣.

(5) معاني القرآن للزجاج ٣٧٦/٤.

(6) انظر القرطبي ٣١٧/١٥- النسفي ٧٧/٤.

٩- الإدعاء والقول: كما في قوله تعالى: (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)[1] قال العلامة النحاس: (الدعوي هاهنا بمنزلة الدعاء والدعوي تكون بمنزلة الإدعاء وتكون بمنزلة الدعاء وأجاز النحويون: اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك والمعني: إنهم لم يحصلوا عند الهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين)[2].

١٠-طلب الاستفهام والسؤال عما يخفي، كما في قوله تعالى: (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ)[3] أي: ما حالها وصفتها وكان حقهم أن يقولوا أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن "ما" يسأل به عن الجنس غالباً لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شئ من جنسه أجروه مجري ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله[4].

١١- إرادة التسمية، كما في قوله تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا)[5].

قال الإمام العلامة القرطبي: (يريد يصيح من بعيد: يا أبا القاسم، بل عظموه كما قال في الحجرات: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ)[6] الآية، وقال [illegible] مجاهد: المعني قولوا: يا رسول الله في رفق ولين، ولا تقولوا: يا محمد بتجهم)[7].

---

(١) سورة الأعراف ٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١٠/٣ - وانظر زاد المسير ١٨٦/٣ - فتح القدير ١٨٨/٢.

(٣) سورة البقرة ٦٨.

(٤) تفسير البيضاوي ٣٣٩/١.

(٥) سورة النور ٦٣.

(٦) سورة الحجرات ٣.

(٧) تفسير القرطبي ٣٢٢/١٢.

١٢- إرادة معني العذاب: علي قول من قال ذلك: كما في قوله تبارك وتعالي: (تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)[١] وقال العلامة المبرد: تدعو أي: تعذب[٢] وقال غيره: تناديهم واحداً واحداً بأسمائهم، قال السمعاني: "وهو الأظهر"[٣].

المطلب الثاني

حاجة الأنبياء إلي الدعاء وكيفية دعائهم ربهم تعالي وتعدد صيغ الدعاء عندهم -عليهم السلام-

مما لا شك فيه أن الدعاء هو أصل من أصول العبادة كما أخبر بذلك النبي -ﷺ- فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن النعمان بن بشير عن النبي -ﷺ- في قوله تعالي: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[٤] قال: "الدعاء هو العبادة" وقرأ: (وقال ربكم أدعوني أستجب لكم) -إلي قوله-: (داخرين)[٥].

---

(١) سورة المعارج١٧- وانظر تفسير القرطبي ١٨٥/٢٠- تفسير ابن كثير ٤٢٢/٤.

(٢) لم أهتد إليه في شئ من كتب المبرد مثل الكامل.

(٣) تفسير السمعاني ٤٧/٦- وانظر القرطبي ٢٨٩/١٨.

(٤) سورة غافر ٦٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٢٦٧/٤، ٢٧١- وأبو داود كتاب الصلاة باب "الدعاء" حديث ١٤٧٩ جـ٢ ص٧٩- والترمذي كتاب التفسير "سورة البقرة" حديث ٢٩٦٩ جـ٥ ص٢١١- وفي الكتاب نفسه "سورة غافر" حديث ٣٢٤٧ جـ٥ ص٣٧٤ وقال الترمذي في الموضعين: "حسن صحيح" - والنسائي في السنن الكبري حديث ١١٤٦٤ جـ٦ ص٤٥٠- وابن ماجه كتاب الدعاء باب "فضل الدعاء" حديث ٣٨٢٨ جـ٢ ص١٢٥٨- وابن أبي شيبة ٢١/٦- والطيالسي ص١٦٩- وصححه ابن حبان ١٧٢/٣- والحاكم ٦٦٧/١- وافقه الذهبي- وهو في صحيح الجامع ٣٤٠٧.

وإذا كان الأنبياء -عليهم السلام- هم المنارات المضيئة، والمصابيح المنيرة المرشدة إلي طريق الخيرة والفلاح، فلا شك أنهم أول الناس بدعاء ربهم تعالي وطلب الحاجات إليه، لأنهم علموا وأيقنوا أن الله تعالي هو ملجأهم وملاذهم، وهو سندهم وقوتهم، وهو الذي تولي أمرهم منذ أراد خلقهم، والله تعالي لم يكلف أنبياءه أكثر مما يطيقون، فلم يجعل من مهمتهم هداية الناس وحملهم جبراً على الدخول في الدين، بل جعلهم مبلغين ومرشدين إلى مواطن الهدي والنور، ومحذرين من مواقع الضلال والخسران، وأما الهداية فهي بيد الله تعالي وحده يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وما عليهم إلا أن يبلغوا ما كلفهم الله تعالي به من رسالات وكتبه قال تعالي: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[1] وقال تبارك اسمه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾[2].

والأنبياء أحوج الناس إلي الدعاء لأنهم دائموا الصلة بالله تعالي ليلاً ونهاراً وفي كل أحوالهم، يأخذون عنه وحيه، ويبلغون بأمره ما يريده ولا يمكن بحال أن تنقطع هذه الصلة ولو للحظة، وبما أن حال الأمم وديدنهم الإعراض والتكذيب، ومحاولة قتل الرسل وإلحاق الأذى بهم، فإن الأنبياء عندما يرون ذلك من أممهم، يلجأون إلي ربهم تعالي، داعين إياه أن يوجد لهم الحل الأمثل، ويأتي بالفرج القريب لما هم فيه من حال، وما يلاقونه من أقوامهم من تكذيب وكفران، فيمدهم الله تعالي بمدد من عنده، وقوة من قوته، بما يجعلهم يواصلون دعوتهم إلي أقصي أمد يمكن لهم أن يفعلوه، فإذا ما وجدوا- بعد طول دعوة وجهد كبير وطول صبر ومصابرة- أن قومهم لا فائدة من مواصلة الدعوة معهم، وأنهم لا يريدون الدخول في الدين السماوي المنزل، هنا يدعو الأنبياء

---

(1) سورة المائدة ٩٩.

(2) سورة القصص ٥٦.

ربهم تعالي أن ينهي هذه المرحلة من الدعوة بإهلاك هـذه الأقـوام وإنـزال الدمـار بـهم، وإفنائهم من الوجود، كما حدث في دعوة نوح -عليه السلام- على قومه.

والأنبياء إذا لم يلجأوا إلي الله تعالي في شدائدهم فإلي من يلجأون؟ وعلي بـاب من يقفون؟ فهذا نبينا محمد -ﷺ- بعد أن ذهب إلى الطائف وحدث ما حـدث لـه مـن تسليط السفهاء والأطفال عليه، فرموه بالحجارة حتى أدمت قدماه الشريفتين، لجأ إلي ربـه تعالي داعيا ومتضرعا وشاكيا حيث قال: **"اللهم إني أشـكو إليـك ضعـف قوتـي، وقلـة حيلتي وهواني علي الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلي مـن تكلني؟ إلي عبد يتجهمني، أو إلي عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بـي غضبـك، أو يحـل علـي سخطك، لك العتبي حتى ترضي، ولا حول ولا قوة إلا بك"**[1] فجاء رسول من عنـد الله تعالي وهو ملك الجبال واضعا نفسه رهن إشارة النبي -ﷺ- وطوع أمـره، ليـنزل بـأهل الطائف العذاب والهلاك إلا أنه لم يشأ ذلك، بل دعا لهـم بالهدايـة إلي ديـن الله القويـم، وسلوكهم الصراط المستقيم. وغير ذلك من الأمثلة الحية الدالة علـى حاجـة الأنبيـاء إلى الدعاء.

ولقد ورد في بيان حاجة الأنبياء إلي الدعاء وفضله وأهميته، آيات قرآنيـة كريمة وأحاديث نبوية شريفة، بلغت كثرة، وكل الآيـات والأحـاديث تـدل علـى المكانـة العليـا للدعاء بين العبادات، وأنه لا غناء لمؤمن عنه.

---

(1) سيرة ابن هشام ٢/٢٦٩- وأورده البغوي في تفسيره ٤/١٧٢- والقرطبي ١٦/٢١١- وابن كثير ٤/١٠٦.

فمن الآيات القرآنية: قوله تعالي مثنيا علي أنبيائه ورسله، ومبينا أنهم كانوا دائماً في دعائه ﷻ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة: نري أن الله تعالي وصف أنبياءه بهذه الأوصاف الثلاثة: المسارعة في الخيرات، ودعاؤهم إياه رغبة ورهبة، والخشوع له على كل حال، وبين أن تلك الأوصاف المجتمعة فيهم هي السبب في نصرتهم علي أعدائهم، وتمكينهم منهم، وإظهارهم عليهم، وفي هذا الثناء من الله تعالي عليهم غنية وكفاية، وبخاصة أن الله تعالي تخير تلك الأوصاف عن غيرها لما فيها من مناسبة المقام وتوفيته حقه، ولو كان شئ أبلغ في الثناء عليهم من هذه الأوصاف لذكرهم الله سبحانه وتعالي به. يقول ابن كثير في تفسير الآية: (أي: في عمل القربات والطاعات يدعوننا رغباً ورهبا. قال الثوري: رغبا فيما عندنا، ورهبا مما عندنا (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله)[2].

ومن الآيات أيضاً: قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[4] ففي هاتين الآيتين وما قبلهما بيان أن الدعاء هو سنة من سنن الأنبياء والمرسلين، وهو ديدن الأولياء

---

(1) سورة الأنبياء ٩٠.

(2) تفسير ابن كثير ١٩٤/٣.

(3) سورة الإسراء ٥٧.

(4) سورة السجدة ١٥-١٦.

والصالحين، ودأب المؤمنين المتواضعين المخلصين، كما أنه صفة من صفات عباد الرحمن الموصوفين بصفات عظيمة منها: إكثارهم من الدعاء والتضرع إلى الله في كل وقت وحين، كما يوحيه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] وهو سمة بارزة من سمات أولي الألباب، وميزة من أهم ميزاتهم التي وصفوا بها: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ — إلى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[2].

ومن النصوص أيضاً: قوله تبارك اسمه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ

---

(1) سورة الفرقان ٦٥-٧٤.

(2) سورة آل عمران ١٩٠-١٩٥.

(3) سورة الشوري ٥.

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[1] ففي هذين النصين بيان أن الدعاء هو شأن من شؤون الملائكة الكرام، وهو نوع من أنواع عيادتهم الدائمة التي لا تنقطع.

وقد روي النعمان بن بشير أنه قال: قال النبي -ﷺ-: "الدعاء هو العبادة" ثم قرأ: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[2] أي: أنه من أفضل العبادات. قال الخطابي: (معناه أنه معظم العبادة، وأفضل العبادة، كقولهم: الناس بنو تميم، والمال الإبل، يريدون أنهم أفضل الناس أو أكثرهم عدداً أو ما أشبه ذلك، وأن الإبل أفضل أنواع الأموال وأنبلها)[3].

وقال المباركفوري في شرحه علي الترمذي: (أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة، لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه)[4].

وعند النظر إلي كيفية دعاء الأنبياء – عليهم السلام- ربهم تعالي نعلم من سيرتهم العطرة وأخبارهم الطاهرة، أنهم كانوا علي أعلي درجات الخشوع والخضوع لله تعالي، وفي أرقي منازل القرب منه سبحانه، وأسمي درجات العبادة والطاعة والإخلاص له -تبارك اسمه- وأشد درجات الانقطاع عن الدنيا وزخارفها، لأنهم أبعد الناس عنها، وعن ملذاتها الفانية، مظهرين حاجتهم إليه وافتقارهم إلي جنابه، راجين تفريج كروبهم، وإذهاب غمومهم.

---

(1) سورة غافر ٧-٩.

(2) سورة غافر ٦٠- والحديث سبق تخريجه في ص١٥ من هذا البحث.

(3) شأن الدعاء ص٥.

(4) تحفة الأحوذي ٢٤٧/٨.

ولقد تعددت صيغ الدعاء عند الأنبياء -عليهم السلام- ما بين الدعاء بصيغة: "ربنا" مثل قوله تعالى في دعاء إبراهيم -عليه السلام- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[1] وصيغة: "اللهم ربنا" مثل قوله تعالى في دعاء عيس -عليه السلام-: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[2] وصيغة: "رب" مثل قوله تعالى في دعاء إبراهيم -عليه السلام- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[3] وصيغة: "اللهم" مثل قوله تعالى في دعاء محمد -ﷺ-: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء﴾[4] أو بصيغة التوحيد: "لا إله إلا أنت سبحانك" مثل قوله تعالى في دعاء ذي النون -عليه السلام-: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[5] وغير ذلك، وكلها تؤدي إلى معرفة أن كل نبي دعا بما يوافق حاله وحال قومه، وبما يتوافق مع ظروف وملابسات الدعاء ومقصودة فيه.

---

(1) سورة إبراهيم ٣٧.

(2) سورة المائدة ١١٤.

(3) سورة إبراهيم ٤٠.

(4) سورة آل عمران ٢٦.

(5) سورة الأنبياء ٨٧.

المبحث الثاني

دعاء نوح في القرآن

وفيه مطالب:

يأتي دعاء نوح -عليه السلام- في أكثر من موضع من القرآن الكريم، وفي غير ما سورة منه، وهاك المواضع المذكور فيها دعاء نوح -عليه السلام-:

١- قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

٢- قوله سبحانه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

٣- قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ

---

(١) سورة هود ٤٥-٤٨.

(٢) سورة الأنبياء ٧٦، ٧٧.

أنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[1].

٤- قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[3].

٦- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ. وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[4].

٧- قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا. رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[5].

---

(1) سورة المؤمنون ٢٦-٢٩.

(2) سورة الشعراء ١١٧-١١٩.

(3) سورة الصافات ٧٥-٨٢.

(4) سورة القمر ١٠-١٥.

(5) سورة نوح ٢٦-٢٨.

المطلب الأول

طلب الشفاعة لولده الكافر

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

جاء طلب نوح -عليه السلام- الرحمة لولده، والعفو عنه والغفران له، من باب شفقة الأب علي ابنه، لأنه من أهله، رغم أنه ليس علي دينه وقد وعده الله تعالي من قبل أنه سينجيه هو وأهله من الكرب العظيم، إلا أن الله تعالي بين لنوح -عليه السلام- أن ابنه "كنعان" ليس من أهله المؤمنين؛ لأنه خالف نهج أبيه، واتبع الباطل رغم ظهور الحق، فلا يدخل في جملة من كان الوعد بإنجائهم.

النداء: مثل الدعاء: قال الراغب: (الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال بـ "يا" أو: "أيا" ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر)[2].

وعليه: فالنداء هنا هو: الدعاء، أي: دعا ربه[3] ويقصد بأهله: أي الذين وعده الله تعالي بنجاتهم، ولذلك قال الله تعالي لنوح: (إنه ليس من أهلك) أي: الناجين الذين

---

(1) سورة هود ٤٥-٤٨.

(2) المفردات في غريب القرآن للراغب ص١٥٨.

(3) انظر القرطبي ٤٥/٩- تفسير النسفي ١٥٧/٢.

شملهم الوعد بالنجاة: وقيل: النداء علي حقيقته، والعطف بالفاء لكون حق التفصيل يعقب الإجمال[1].

ومعني قوله تعالي: ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي: أعدل العادلين: كما قال ابن عباس: وقال ابن زيد: "وأنت أحكم الحاكمين" بالحق[2] وقال العلامة النسفي: "وأنت أحكم الحاكمين" أي: أعلم الحكام وأعدلهم، إذ لا فضل لحاكم علي غيره إلا بالعلم والعدل)[3].

قال الإمام العلامة ابن جرير الطبري في تفسير الآية: (يقول تعالي ذكره: "ونادي نوح ربه فقال": رب إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، وإن وعدك الحق الذي لا خلف له "وأنت أحكم الحاكمين" فاحكم لي بأن تفي بما وعدتني من أن تنجي لي أهلي وترجع إلي ابني)[4].

وقال القرطبي: ("ونادي نوح ربه" أي: دعاه فقال: "رب إن ابني من أهلي" أي: من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق، ففي الكلام حذف "وإن وعدك الحق" يعني: الصدق)[5] وقال القرطبي أيضاً: (قال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: "وأهلك" وترك قوله: "إلا من سبق عليه القول" فلما كان عنده من أهله قال: "رب إن ابني من أهلي" يدل علي ذلك قوله: "ولا تكن مع الكافرين" أي: لا تكن ممن لست منهم، لأنه كان عنده مؤمنا في ظنه، ولم يئ نوح يقول لربه: "إن ابني من أهلي"

---

(1) روح المعاني ١٢، ٦٨.

(2) زاد المسير ١١٣/٤.

(3) تفسير النسفي ١٥٧/٢.

(4) تفسير الطبري ٤٩/١٢.

(5) القرطبي ٤٥/٩.

إلا وذلك عنده كذلك، إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم، وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب، أي: علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت)[1].

والظاهر: أن القول بأن نوحاً -عليه السلام- كان يظن أن ابنه كان مؤمنا ولم يكن كافراً، إنما هو قول فيه نظر، بل يرده التصريح الوارد في الآية بأن ابن نوح كان كافراً حين قال له والده: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[2] لأن كل من ركب مع نوح في السفينة فهو مؤمن ناج من عذاب الله تعالى وإهلاكه، ولو كان ابن نوح مؤمنا حقا لما خالف أباه وركب أمواج البحر حتى غرق، والله أعلم.

وقيل في الآية أيضاً: ما ورد عن الحسن قال: كان منافقا، ولذلك استحل نوح أن يناديه، وعنه أيضاً أنه قال: كان ابن امرأته، دليله قراءة علي: "ونادي نوح ابنها"[3] "وأنت أحكم الحاكمين" ابتداء وخبر أي: حكمت علي قوم بالنجاة وعلي قوم بالغرق[4] وقد رجح الإمام الطبري القول بأن الأهل في الآية أي: الناجين، وأن الولد ابن نوح فعلاً، لإخبار الله تعالى بذلك. قال: (وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً وبي كافراً، وكان ابنه؛ لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمداً -ﷺ- أنه ابنه فقال: "ونادي نوح ابنه" وغير جائز أن يخبر أنه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر، وليس في قوله: "إنه ليس من أهلك" دلالة على أنه ليس بابنه؛ إذ كان قوله: "ليس من أهلك" محتملاً ما ذكرنا

---

(1) المصدر السابق ٤٥/٩.

(2) سورة هود ٤٢.

(3) وهي قراءة شاذة غير معمول بها- انظر: المحتسب ٣٢٢/١- مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص٦٠.

(4) المصدر السابق ٤٥/٩- وانظر الطبري ٤٩/١٢، ٥٠.

ما ذكرناه ومحتملاً أنه ليس من أهل دينك ثم يحذف الدين، فيقال: "إنه ليس من أهلك" كما قيل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[1] [2].

والقول بأن ابن نوح كان من صلبه هو قول الجمهور[3]. قال العلامة ابن الجوزي عن هذا الرأي بعد أن ساقه أولاً: (والأول أصح، لموافقته ظاهر القرآن، ولاجتماع الأكثرين عليه، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة).[4]

وتعليل الله تعالى عدم نجاته ابن نوح بقول: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ فيه قولان: أحدهما أنه يرجع إلى السؤال فيه، فالمعنى: سؤالك إياي فيه عمل غير صالح- قاله ابن عباس وقتادة وهذا ظاهر ،لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله: (رب إن ابني من أهلي) فرجعت الكناية إليه. والثاني: أنه يرجع إلى المسؤول فيه، وفي هذا المعنى قولان: أحدهما: أنه لغير رشدة- قاله الحسن، والثاني: أن المعنى: إنه ذو عمل غير صالح قاله الزجاج [5] وقرأ الكسائي ويعقوب: ﴿إنه عمل غير صالح﴾[6]

وإيثار: ﴿غير صالح﴾ على: "فاسد" إما لأن الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح، فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض، كالقتل والمظالم، وإما

---

(1) سورة يوسف ٨٢.

(2) الطبري ٢٥/١٢.

(3) زاد المسير ١١٣/٤.

(4) المصدر السابق ١١٤/٤.

(5) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥٥/٣-وانظر زاد المسير ١١٤/٤.

(6) الحجة في القراءات السبع ١٨٧/١- حجة القراءات لابن زنجلة صـ٣٤١ - إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للبنا صـ٣٢١- زاد المسير ١١٤/٤- تفسير البيضاوي ٢٣٧/٣.

للتلويح بأن نجاة من نجا إنما هي لصلاحه[1]. قال البيضاوي: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله (إنه عمل غير صالح) فإنه تعليل لنفي كونه من أهله وأصله: إنه ذو عمل فاسد، فجعل ذاته ذات العمل: للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

ثم بدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفها وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه.[2]

وقول الله تعالى لنوح عليه السلام: (فلا تسألن ما ليس لك به علم) إعلام منه سبحانه لنوح بعدم تكرار سؤاله ما خفي عليه من أمور هل هي صواب أم خطأ؟!

وإنما سمي نداءه سؤالاً: لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه في شأن ولده، أو استفساره المانع للإنجاز في حقه[3]، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين): لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر.[4]

والمعنى: أي أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون أو كراهية أن تكون من الجاهلين، أي الآثمين، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾[5] أي:

---

(1) تفسير أبي السعود ٢١٢/٤ - وانظر روح المعاني ٦٩/١٢.

(2) تفسير البيضاوي ٢٣٧/٣.

(3) المصدر السابق ٢٣٧/٣.

(4) المصدر السابق ٢٣٨/٣.

(5) سورة النور - الآية: ١٧

يحذركم الله وينهاكم وقيل المعني: أرفعك أن تكون من الجاهلين، قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين.[1]

وقال الإمام أبو السعود: (ولما كان دعاؤه – عليه الصلاة والسلام– مبنياً على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله، وقد نفي ذلك وحقق ببيان علته، فرع على ذلك النهي عن سؤال إنجائه، إلا أنه جيء بالنهي على وجه عام يندرج فيه ذلك اندارجاً أوليا فقيل: **(فلا تسألن)** أي: إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني ما ليس لك به علم، أي: مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون: **(ما)** عبارة عن المسئول الذي هو مفعول للسؤال، أو طلباً لا تعلم انه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذي هو مفعول مطلق، فيكون النهي وارداً بصريحه في كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال، ويجوز أن يكون المعني: ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب، فيكون النهي وارداً في مشتبه الحال، ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى، وعلى التقديرين: فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه – كما ذكرناه.[2]

ومن باب أدب نوح –عليه السلام– مع ربه جل جلاله: انه كان جوابه لوعظ ربه تعالى له بدعاء آخر معلناً توبته إلى ربه سبحانه مما بدر منه قبل من سؤاله الرحمة لولده رغم علمه بحاله، راجيا منه سبحانه العفو والمغفرة، فقال: ﴿**رب إني أعوذ بك أن أسلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين**﴾ أي: أعوذ بك أن أسألك فيما

---

(1) تفسير القرطبي ٩/٤٨.

(2) تفسير أبي السعود ٤/٢١٢.

يستقبل ما ليس لي به علم، ما لا علم لي بصحته، وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال وترحمني بالتوبة والتفضل على أكن من الخاسرين أعمالاً.[1]

قال شيخنا أبو السعود –رحمه الله–: وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه، وإنما لم يقل: "أعوذ بك منه" أو: "من ذلك": مبالغة في التوبة، وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك، لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى، وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكارة إلا بذلك.[2]

وبعد إعلان نوح توبته إلى ربه واستغفاره إياه لما بدر منه من سؤل نجاة ابنه، وقبول الله تعالى توبته إليه، أراد سبحانه أن يريح قلب نبيه، ويمده بمزيد من نعمته عليه وعلى من آمن معه، فقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أنزل من السفينة مسلماً من المكارة من جهتنا، أو مسلماً عليك "وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ" أي: ومباركاً عليك، أو زيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانياً وقرئ: "أهبط" بالضم "وبركة" على التوحيد[3]، وهو الخير النامي. (وعلى أمم ممن معك) وعلى أمم هم الذين معك سموا أمماً لتحزبهم، أو لتشعب الأمم منهم، أو: وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم المؤمنون لقوله ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي: وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ثم يمسهم منا عذاب أليم في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب[4].

---

(1) انظر البيضاوي ٢٣٨/٣.

(2) تفسير أبي السعود ٢١٣/٤.

(3) انظر مختصر شواذ القرآن لابن خالوية ٦٠.

(4) أنظر: البيضاوي ٢٣٨/٣، وانظر تفسير أبي السعود ٢١٤/٤.

المطلب الثاني

نداء نوح ربه تعالى طلباً النجاة والنصر على الكفار من قومه

قال تعالى: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَىَ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (1).

النداء هنا: هو الدعاء أيضا كما سبق بيانه، والآية جاءت في معرض ذكر الله تعالى بعض أنبيائه الذين أنعم عليهم بنعم كثيرة، وأحاطهم بمنن كبيرة كثرت أنواعها وتعددت ألوانها، واختلفت طرقها، كل حسب ما يوافق حاله ويسعده، فبعد أن تحدث الله تعالى عن إبراهيم ولوط-عليهما السلام- وما دار في قصتهما وما أنعم عليهما من نعم...الخ-أردف الحديث عن نوح -عليه السلام- في نفس السياق الذي يتضمن الكلام عن تعداد نعم الله تعالى على أنبيائه، فقال: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَىَ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: ونوحا إذ دعانا من قبل إبراهيم ولوط، لأن السياق يدل عليه، ولأنه ما زل في عرض ذكر المنن الإلهية على أنبيائه في إجابة دعائهم، ونجاتهم من المهالك، فقال: أجبناه إلى دعائه، وأنجيناه وأهله-أي المؤمنين منهم-من الغرق والهلاك وجعلنا النصر حليفه-والدمار والفناء لأعدائه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىَ﴾ أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك وهي ظرف للمضاف المقدر أي: اذكر نبأه الواقع وقت دعائه(2).

---

(1) سورة الأنبياء ٧٦-٧٧.

(2) تفسير الطبري ٥٠/١٧.

ويجوز أن يراد بالقبلية في الآية : زمان نبينا محمد- ﷺ -وإبراهيم ولوط[1] ويكون المراد بقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : وقبل من ذكرهما سابقا وهما إبراهيم ولوط -عليهما السلام- قال شيخ المفسرين الطبري : ﴿من قبلك ومن قبل إبراهيم ولوط﴾[2].

ومن باب الفضل على نوح أن الله تعالى استجاب له دعائه على وجه السرعة، بدليل تعبيره بفاء السرعة في قولة : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا ﴾، لأن نوحا دعا على قومه بالهلاك فقال : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[3]، فكانت الاستجابة له بأكثر مما طلب، بأن أهلك الله تعالى قومه، ونجاه وأهله من المؤمنين من الطوفان، ونصره على القوم الذى كذبوا بحجج الله وأدلته وقد علل الله تعالى إغراق جميع قوم نوح من المكذبين، بأنهم ﴿ كانوا قوم سوء﴾ أي قبلك يسيئون الأعمال، ويعصون الله تعالى، ويخالفون أمره.

قال البيضاوي﴿إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيب الحق والانهماك في الشر، ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى"[4].

والمعنى : يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد نوحا إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، وسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيده، وكذبوا نوحا فيما أتاهم به من الحق من عند ربه، وقال :﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [5]، فاستجبنا له دعاءه، ونجيناه وأهله، يعني بأهله أهل الإيمان من ولده،

---

(1) انظر : البغوي ٣/، -القرطبي -فتح القدير //

(2) تفسير الطبري ١٧/٥٠..

(3) [سورة: نوح - الآية: ٢٦]

(4) تفسير البيضاوي ٤/١٠٢.

(5) سورة نوح ٢٦.

وحلائلهم من الكرب العظيم، يعني بالكرب العظيم، العذاب الذي أحل بالمكذبين من الطوفان والغرق، والكرب شدة الغم، يقال منه: قد كربني هذا الأمر فهو والعاملة كربا[1].

المطلب الثالث : دعاؤه بالنصر على أعدائه :

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[2].

جاء هذا الدعاء من نوح -عليه السلام- ربه تعالى- كما حكته الآيات في سورة المؤمنين- بعد أن عرض دعوته على قومه ولم يلق منهم إلا التكذيب والإعراض، ولم يجد طريقا إلى هدايتهم، ولذلك طلب من ربه -عز وجل- النصر عليهم، جزاء تكذيبهم وكفرانهم به وبرسالته، واتهامهم له بالجنون وتربصهم به وإرادتهم الشر له.

قال أبو جعفر الطبري : قال نوح داعيا ربه مستنصرا به على قومه لما طال أمره وأمرهم وتمادوا في غيهم، ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يعني : بتكذيبهم إياي فيما بلغتهم من رسالتك ودعوتهم إليه من توحيدك[3].

وقال القرطبي في معني الآية : قال حين تمادوا على كفرهم: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي : انتقم ممن لم يطعني ولم يسمع رسالتي[4].

---

(1) تفسير الطبري ١٧/٥٠.

(2) [سورة: المؤمنون - الآية: ٢٦-٢٧.

(3) تفسير الطبري ١٨/١٧.

(4) القرطبي ١٢/١١٩.

واستجابة الله تعالى لنوح-عليه السلام-دعائه على طريقة الإسراع، وعبر عنها بالفاء في قوله : "فَأَوْحَيْنَآ" كسابقتها في النص الثاني في سورة الأنبياء.

والوحي المراد في الآية : هو إرسال الرسل إليه من السماء بأمرنا-أي بأمر الله-وتعليمنا له لكيفية صنعها[1] وصناعة الفلك المرادة في الآية هي : كما قال البيضاوي في قوله تعالى :﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تخطي فيه أو يفسده عليك مفسد " وَوْحَيْنَآ" أي : بأمرنا وتعليمنا كيف تصنع[2] وفي ذلك إرشاد له إلى كيفية صناعة الفلك تحت مرأي ومنظر إلهي ، حتى لا يخطىء في شيء من صناعتها.

والتعبير عن الحفظ بالأعين هو كما في قوله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[3]، أي : بحفظنا ورعايتنا، وفي الآية : عبر بكثرة بآلة الحس الذي يحفظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل[4].

و : "أن" في قوله تعالى : "أنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ" مفسرة لما في الوحي من معني القول : "بِأَعْيُنِنَا" أي : ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا ، كأن معه -عليه السلام-منه-عز وجل-حفاظاً وحراساً يكلئونه بأعينهم من التعدي، أومن الزيغ في صنعة[5] والفاء في قوله تعالى :

---

(1) القرطبي ١١٩/١٢، وانظر تفسير أبي السعود ١٣١/٦.

(2) تفسير البيضاوي ١٥٢/٤-بتصرف يسير-وانظر القرطبي١٥٢/٤.

(3)[سورة: الطور - الآية: ٤٨]

(4) تفسير البيضاوي ٢٣٣/٣.

(5) تفسير أبي السعود ١٣١/٦.

"فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا" لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك[1] والمراد بالأمر هنا: العذاب كما في قوله تعالى ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[2] إلا الأمر بالركوب، كما قيل. وبمجيئه كمال اقترابه، أو ابتداء ظهوره، ، أي: إذا جاء إثر تمام الفلك عذابنا[3] ، وقوله: "وَفَارَ التَّنُّورُ" ، عطف بيان لمجيء الأمر[4].

و: "التَّنُّورُ" هو: الذي يخبز فيه يقال: هو في جميع اللغات كذلك [5] ، وقال في اللسان: "التَّنُّورُ" ، وجه الأرض: فارسي معرب، وقيل: هو بكل لغة ، وفي التنزيل العزيز: " فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ" ، قال علي كرم الله وجهه: هو وجه الأرض، وكل مفجر ماء تنور قال أبو إسحاق: أعلم الله -ﷻ- أن وقت هلاكهم فور التنور. وقيل في التنور أقوال: قيل: التنور: وجه الأرض، ويقال: أراد إذا فار من ناحية مسجد الكوفة. وقيل: إن الماء فار من تنور الخابزة، وقيل أيضا: إن التنور: تنوير الصبح وروي عن ابن عباس: التنور، الذي بالجزيرة وهي عين الورد والله أعلم بما أراد[6].

ونقل العلامة المفسر ابن كثير عن ابن عباس قوله في معني:" التَّنُّورُ" قال (عن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور حتي فار الماء من

---

(1) المصدر السابق ١٣١/٦.

(2) سورة هود الآية ٤٣.

(3) تفسير أبي السعود ١٣١/٦.

(4) المصدر السابق ١٣١/٦.

(5) انظر اللسان ومختار الصحاح: "تنر".

(6) اللسان: تنر-وانظر في ذلك الطبري ٣٨/٢١، وما بعدها-القرطبي ٣٩/٣٣/٩، ابن كثير ٤٤٦/٢.

التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف[1].

وقوله: "فَاسْلُكْ فِيهَا" أي: أدخل فيها، يقال: سلك فيه أي دخل فيه، وسلكه فيه، أدخله فيه، ومنه قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[2].

و: "مِن كُلٍّ" أي: من كل أمة "زَوْجَيْنِ": أي: فردين مزدوجين، كما يعرب عنه قوله تعالى: "اثْنَيْنِ" فإنه نص في الفردين دون الجمعين، أو الفريقين، وقرئ بالإضافة على أن المفعول "اثنين"، أي: من كل أمتي زوجين، وهما أمة الذكر وأمة الأنثى، كالجمل والنوق والحصن والرماك وهذا صريح في أن الأمر كان قبل صنعة الفلك. وفي سورة هود قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾، فالوجه أ، يحمل إما على أنه حكاية لأمر آخر تنجيزي ورد عند فوران التنور الذي نيط به الأمر التعليقي اعتناء بشأن المأمور به، أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه، لكن لما كان الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به في حق إيجاب المأمور به بمنزلة العدم، جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكي على صورة التنجيز[3].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: بالدعاء لهم بالإنجاء: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه، كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

---

(1) ابن كثير ٤٤٦/٢.

(2) سورة: المدثر - الآية: ٤٢.

(3) تفسير أبي السعود ١٣١/٦.

كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1] وقال البيضاوي في تفسير نظير الآية من سورة هود: ﴿ولا تراجعني فيهم، ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم "إنهم مغرقون" محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه﴾ [2]

وقال ابن كثير: أي: عند معاينة (إنزال المظر العظيم لا تأخذك رأفة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان).[3]

وقال أبو السعود: أي: (لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذب عنهم، وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم، وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل: "إنهم مغرقون" أي: محكوم عليهم بالإغراق قد مضي به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، ولزمتهم الحجة، فلم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلاً للآخرين)[4] وقيل المعني: ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فإنهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتأخر إغراقهم عنه، وقيل المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه.[5]

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ منزل وإنزال واحد والمنزل موضع النزول، والمنزل بمعني: النزول، كما تقول: جلس مجلساً والمجلس: الموضع الذي يجلس فيه[6] وقال الجوهري المنزل يفتح الميم والزاي: النزول وهو الحلول

---

(1) سورة الأنعام وانظر تفسير البيضاوي ١٥٣/٤- وانظر تفسير أبي السعود ١٣٢/٦.

(2) تفسير البيضاوي ٢٣٣/٣.

(3) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٥.

(4) تفسير أبي السعود ٢٠٦/٤-وانظر زاد المسير ١٠٠/٤-٤٦٩/٥.

(5) فتح القدير ٤٩٧/٢.

(6) معاني القرآن ٤٥٤/٤.

تقول: نزلت نـزولا ومـنزلا[1]. والمعـني: "وَقُـل رَّبِّ أَنزِلْنِـي" في السـفينة أو في الأرض "مُنزَلاً مَّبَارَكاً" يتسبب لمزيد الخير في الدارين: وعلى قراءة أبي بكر: "مُنزَلاً" [2] بمعـني: إنزالا، أو موضع إنزال، أي: أنزلني داراً مباركة "وأنت خير المنزلين" ثناء مطابق لدعائـه، أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه، وتوسلاً به إلى الإجابة[3] وإنما أفرده بـالأمر والمعلـق بـه أن يستوي هو ومن معه: إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائـه مندوحـة عـن دعائـهم، فإنـه يحيط بهم.[4]

قال ابن الجوزي: (وفي الوقت الذي قال فيه نوح ذاك قولان: أحدهما: عند نزلوه في السفينة، والثاني: عند نزوله من السفينة).[5]

وقراءة العامة: "مُنزَلاً" بضم الميم وفتح الزاي على المصدر الـذي هـو الإنـزال أي: أنزلني إنزالا مباركاً، وقرأ زربن حبيش وأبو بكر عـن عـاصم والمفضـل :" مَـنزِلاً" بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع أي: أنزلني موضعاً مباركـاً [6] والآيـة تعليـم مـن الله ﷻ لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلـوا بيوتـهم وسـلموا، قـالوا

---

(1) الصحاح الجوهري ١٨٢٩/٥.

(2) حجة القراءات لابن زنجلة ٤٨٦.

(3) تفسير البيضاوي ١٥٣/٤-وانظر حجة القرءات لابن زنجلة ٤٨٦.

(4) المصدر السابق- تفسير أبي السعود ١٣٢/٦.

(5) زاد المسير ٤٧١/٥.

(6) حجة القراءات لابن زنجلة ٤٨٦-إتحاف ٤٠٣- زاد المسير ٤٧١/٥-تفسير الرطبي ١١٩/١٢، ١٢٠-فتح القدير ٤٨٢/٣.

وروي عن على رضى الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين.[1]

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه نوح عليه السلام: وقل إذا سلمك الله وأخرجك من الفلك فنزلت عنها: رب أنزلني منزلاً من الأرض مباركاً وأنت خير من أنزل عباده المنازل)[2]

قال الواحدي: (قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك: الحمد لله، وعند نزوله منها: رب أنزلني منزلاً مباركاً).

(1) القرطبي ١٢/١١٩-١٢٠.

(2) تفسير الطبري ١٨/١٨.

المطلب الرابع

طلبة القضاء الإلهي والحكم بينه وبين قومه

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [1]

هذا الدعاء من نوح عليه السلام: جاء بعد حوار طويل بينه وبين قومه قد حكاه القرآن الكريم من أول قوله جل جلاله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ* قَالُوَاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ* قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [2] فلما أن لم يجد نوح عليه السلام: طريقاً إلى إمكان هدايته قومه، بادر إلى اللجوء إلى ربه تبارك وتعالى ودعائه ليقضي بينه وبينهم، ويفرج عنه ما هو فيه من ضيق وآلام بسبب تكذيب قومه له، فقال لربه -وهو أعلم به- (رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين).

قال العلامة ابن كثير: (لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد وقالوا في الآخر: (لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) أي لئن

---

(1) سورة: الشعراء - الأية: ١١٧-١٢١

(2) سورة: الشعراء - الأية: ١٠٥- ١١٦

لم تنته من دعوتك إياناً إى دينك (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ) أي: لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال: "رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً" الآية، كما قال في الآية الأخرى: "فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ"[1] إلى آخر الآية)[2]

وفي تصدير نوح دعائه بقوله: (رب إن قومي كذبون) بيان علة دعائه عليهم، وهو تكذيبهم دعوته، لا لأجل أمر شخصي يتعلق به هو، كتخويفهم له وتوعدهم إياه، أو استخفافهم به..... إلخ.

قال البيضاوي في تفسير الآية: (إظهار لما يدعو عليهم لأجله، وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه)[3] والمراد بالفتح المراد هنا: الحكم والقضاء.

قال النسفي: (والفتاحة: المحكومة، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً، لأنه يفصل بين الخصومات)[4]، والمعني: أي: احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا من الفتاحة بمعني الحكومة ، و "فَتْحاً" مصدر، وجوز أن يكون مفعولاً به على أنه بمعني: مفتوحاً[5]. وقيل المعني: (فاحكم بيني وبينهم حكماً من عندك تهلك به المبطل، وتنتقم به ممن كفر بك وجحد توحيدك وكذب رسولك)[6]. وهذا المعني مروي عن قتادة وابن

---

(1) سورة القمر – الآية: ١٠

(2) تفسير ابن كثير ٣٤٢/٣.

(3) تفسير البيضاوي ٢٤٧/٤.

(4) تفسير النسفي ١٩٢/٣.

(5) روح المعاني ١٠٩/١٩.

(6) تفسير الطبري ٩١/١٩- وانظر معاني القرآن ٥٥/٣.

زيد[1]. وقيل: اقض بيني وبينهم قضاء يعني: بالعذاب، ونجني ومن معي من ذلك العذاب.[2]

واستجاب الله تعالى نبيه فنجاه هو ومن آمن معه حين فتح بينه وبين قومه وأنزل الله بأسه بالقوم الكافرين، قال تعالى: "فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون* ثم أغرقنا بعد الباقين"

قال ابن كثير: (أي: أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين)[3] والفلك المشحون: يعني: في السفينة الموقرة المملوءة.[4]

أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: اخبرني عن قوله عز وجل: "الفلك المشحون" قال: السفينة الموقورة الممتلئة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عبيد بن الأبرص:

شحنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط[5]

واخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: تدرون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر [6] والآية: حكاية إجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح عليه السلام.[7]

---

(1) تفسير الطبري ٩١/١٩- الدرا المنثور ٣١١/٦.

(2) زاد المسير ١٣٤/٦.

(3) تفسير ابن كثير ٣٤٢/٣.

(4) تفسير الطبري ٩٢/١٩ — تفسير أبي السعود ٢٥٦/٦.

(5) الدر المنثور ٣١١/٦.

(6) المصدر السابق.

(7) تفسير أبي السعود ٢٥٥/٦.

وفي الآية الكريمة: عبرة ودلالة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، حيث جعل ما حدث لمن كفر من قوم نوح من هلاك ودمار آية وعبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتعظ فقال: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾.

المطلب الخامس

سرعة إجابة الله الدعاء لنوح والثناء عليه

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[1]

النداء أيضاً هنا هو للدعاء كما مر بيانه، والمقصود به هنا في الآية كما قال الواحدي والبغوي: هو: يعني قوله: "أني مغلوب فانتصر" [2] والآية جاءت شروعاً في تفصيل القصص بعد إجمالها أي: ولقد دعانا نوح حين أيس من قومه، فأجبناه أحسن الإجابة، فو الله لنعم المجيبون نحن، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه.[3]

واللام في قوله: "وَلَقَدْ" هي الموطئة للقسم، وكذا اللام في قوله: "فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ" أي: نحن، والمراد: أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه، فأجاب الله دعاءه وأهلك قومه بالطوفان، فالنداء هنا هو: نداء الدعاء لله والاستغاثة به كقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ

---

(1) سورة الصافات - الآية: ٧٥- ٨٢

(2) تفسير الواحدي ٩١١/٢- البغوي ٣٠/٤.

(3) تفسير البيضاوي ١٦/٥ بتصرف.

رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً)[1] وقوله: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ)[2] قال الكسائي: أي: فلنعم المجيبون له كنا [3]. وفي دعائه قولان: أحدهما: انه دعا مستنصراً على قومه، والثاني: أن ينجيه من الغرق[4]. وفي قوله: "ونجيناه وأهله من الكرب العظيم" تدليل على وصف الذات العلية بقوله: "فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ" حيث أجابه إلى الأمرين معاً: الأول: نجاته هو ومن آمن معه من الكرب العظيم، وهو الغرق أو أذي قومه، والثاني: إهلاك من لم يؤمن منهم، فكانت النجاة له وللمؤمنين من اتباعه، وهلاك الكفرة من قومه هي نتيجة قبول الله تعالى دعوته، وإجابته إلى ما دعا به.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية: "ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون" قال:"صدقت ربنا أنت أقرب من دُعي وأقرب من يعطي، فنعم المدعي، ونعم المعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى، وأنت ربنا ونعم المصير".[5]

وقوله: "وجعلنا ذريته هم الباقين" وذلك أن نسل أهل السفينة انقرضوا غير نسل ولده فالناس كلهم من ولد نوح[6]. قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات

---

(1) سورة: نوح - الآية: ٢٦

(2) سورة: القمر - الآية: ١٠ — وانظر فتح القدير ٤٠٠/٤.

(3) تفسير القرطبي ٨٩/١٥ — وانظر تفسير الطبري ٦٧/٢٣.

(4) زاد المسير ٦٥/٨.

(5) نقله السيوطي في الدر المنثور ٩٨/٧ ولم يعزه لغير ابن مرديه.

(6) قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح وكان نوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام، وهو أبو العرب وفارس الروم، وحام: وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث: وهو أبو الترك ويأجوج وماجوج- انظر النسفي ٢٢/٤ - ٢٣.

من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساؤه، فذلك قوله: **"وجعلنا ذريته هم الباقين"**[1] "وتركنا عليه" أي: تركنا عليه ذكرا جميلا "في الآخرين" وهم الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة. قال الزجاج[2]: وذلك الذكر الجميل قوله: "سلام على نوح في العالمين"[3] وهم الذين جاؤوا من بعده، والمعني تركنا عليه أن يصلي عليه في الآخرين إلى يوم القيامة[4] وجاء ختام الآية بقوله: **"إنا كذلك نجزي المحسنين"** ليدلل على أنه كرمه باستجابة دعائه ونجاته، لأنه محسن يستحق الإجابة والثناء الحسن، قال مقاتل: جزاء الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين[5] وقال البيضاوي: (تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه) [6] وبعدها قال: "إنه من عبادنا المؤمنين" وهذا تعليل لإحسانه بالإيمان إظهارا لجلالة قدره، وأصاله أمره[7] ثم ذكر أنه أغرق الكافرين من قومه فقال تعالى: "ثم أغرقنا الآخرين" قال الإمام النسفي: ("إنا كذلك نجزى المحسنين" علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسنا "إنه من عبادنا المؤمنين" ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصاري من صفات المدح والتعظيم)[8].

---

(1) القرطبي ٨٩/١٥

(2) معاني القرآن للزجاج ٣٠٨/٤.

(3) سورة: الصافات - الآية: ٧٩

(4) زاد المسير ٦٥/٧-٦٦.

(5) المصدر السابق ٦٦/٧.

(6) تفسير البيضاوي ١٦/٥.

(7) تفسير البيضاوي ١٦/٥.

(8) تفسير النسفي ٢٢/٤.

والآية: نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين حسبما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [1] كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم إلياس، ولبيان حسن عاقبة بعضهم، الذين أخلصهم الله تعالى ووقفهم للإيمان، كما أشار إليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غني عن البيان.[2]

المطلب السادس

دعاؤه ربه وشكواه إليه قومه طالبا الانتقام منهم والنصر والتأييد له والمؤمنين

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ* وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [3]

هذا الآية ضمن سلسلة الآيات القرآنية المتحدثة عن نوح عليه السلام وما لاقاه من قومه من تكذيب وإعراض، وكفران قومه لما جاء به، وما لاقاه من صنوف العذاب منهم، لعتوهم وجحودهم دون أن يجد سبيلاً إلى إصلاحهم، واعتدال أمرهم، لذا دعا ربه تعالى بأسلوب آخر ممزوج بالرجاء الملح، والطلب الشديد في تخليصه من هذا الهوان، وسرعة

---

(1) سورة: الصافات - الآية: ٧٣

(2) تفسير أبي السعود ١٩٥/٧.

(3) سورة: القمر - الآية: ١٠- ١٥

الانتقام من هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين لا يريدون للهداية أن تجد طريقها إلى قلوبهم، فلا يستحقون إلا الهلاك والدمار وبخاصة بعد أن اتهموه بالجنون وزجروه وأهانوه، كما حكى القرآن ذلك في قوله: **"كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر"** ولذا جاء التعبير القرآن بعده مباشرة بقوله: **"فدعا ربه"** الآية بأمرين: الأول: دخول الفاء على الفعل، والثاني: إضافة نوح إلى ضمير "الرب" إشعاراً بأن ربه تعالى هو المتولي أمره، وهو الذي سينصره على من خالفه، ولينضم هذا الأسلوب إلى ضمير الإضافة في قوله قبلها: "فكذبوا عبدنا" لأن دعوة النبي لا ترد، بل تأخذ طريقها إلى القبول والاستجابة عند الله تعالى.

قال العلامة القرطبي: (وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه).[1]

وقال ابن كثير: (**"فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ"** أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك)[2].

وقوله: **"أَنِّي"** يعني: يأتي، وقرئ بالكسر على إرادة القول[3] ومن شدة ما لاقى نوح من قومه عبر عن غلبته منهم بقوله: **"مَغْلُوبٌ"** بصيغة المصدر دون أن يقول مثلاً: "غلبت" أو: "غلبوني": للتدليل على أنه كان دائماً في غلبه منهم وعدم إنصاف أحدهم له، لذا حكى عن حاله بما يفيد ديمومته عليه من غلبة قومه له.

---

(1) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣١.

(2) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤.

(3) ابن خالويه ١٤٧.

ولما كان الأمر متعلقاً بالدعوة إلى الله تعالى، وأن لجوءه إلى ربه داعيا إياه أن يخلصه من براثن قومه، وراجياً نصرته عليهم ، أسند أمر النصر إلى ربه تعالى حيث قال: "فانتصر" دون أن يقول مثلاً: "فانصرني"؛ لأن هذا النصر الذي أريده هو نصرك دعوتك التي كلفتني بها، وأن دعائي لك بما دعوت على قومي هو من أجلها، لا إنتقاماً لنفسي، أو حمية لها، ولذا جاءت الاستجابة من الله تعالى له على وجه السرعة والتي عبر عنها بالفاء في قوله: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر" أي: صدر الأمر منا إلى فتح أبواب السماء ليخرج منها الماء المتدفق ليكون أداة إهلاكهم ودمارهم.

قرأ ابن عامر: "ففتحنا" مشددة التاء: أي: مرة بعد مرة، وشيئاً بعد شيء وحجته قوله: "مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ"[1] جمعوا على التشديد لأنه ذكر الأبواب كما ذكر عند قوله: "ففتحنا أبواب السماء" وقرأ الباقون: "ففتحنا" بالتخفيف، لأنه -وإن كثر- فإن فتحه كان بمرة واحدة لا بمرات.[2]

قال ابن كثير: "فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ" فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عز وجل: "وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ" أي: نعم المجيبون له).[3]

والمنهمر: الكثير قاله السدي، قال الشاعر:

أعيني جودا بالدموع الهوامر ... على خير بادٍ من معد وحاضر

وقيل: إنه المنصب المتدفق، ومنه قول امرئ القيس يصف غيثاً:

---

(1) سورة ص ٥٠

(2) كتاب السبعة في القراءات ٦١٨ -- حجة القراءات بـ٦٨٩.

(3) تفسير ابن كثير ١٣/٤.

راح تمريه الصبا ثم انتحي فيه شؤبوب جنوب منهمر

والهمر: الصب، وقد همر الماء والدمع يهمر همراً وهمر أيضاً إذا اكثر الكلام وأسرع، وهمر له ماله أي: أعطاه، قال ابن عباس: "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر" من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً.(1)

ووصف الماء النازل من السماء بقوله: "منهمر" لسرعة انصبابه وتدفقه بغزارة ليكون أبلغ في إهلاكهم والقضاء عليهم.

ومن عظيم إرادة الله تعالى لهم الهلاك إحاطتهم بأدوات الإهلاك والموت من كل جانب، لذا جعل الماء ينهمر من السماء ويخرج من عيون الأرض، ليلتقي الماءان، ماء السماء وماء الأرض، ويتحدا في إغراقهم على أعظم سورة عرفتها لبشرية، حتى لا يجدوا لهم طريقاً إلى النجاة، ولذا قال الله تعالى: "وفجرنا الأرض عيوناً فالتقي الماء على أمر قد قدر" أي: على أمر قد قدرناه في الأذل من غير تفاوت وقضينا به فلا مفر من نفاذه وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

وعلى الرغم من أن الماء جاء من مصدرين اثنين من السماء، ومن عيون الأرض، إلا أنه عبر عنه بالإفراد في قوله: "فالتقي الماء" يعني به: ماء السماء وماء الأرض ولم يقل: "فالتقي الماءان" لأن الأمر الصادر لهما في وقت واحد، ومهمتها واحدة وهي إهلاك قوم نوح.

والإفراد: لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد.(2)

---

(1) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣١-١٣٢

(2) تفسير أبي السعود ٨/ ١٦٩- وانظر البغوي ٤/ ٢٦٠.

قال محمد بن كعب: ..... التقي الماء والالتقاء إنما يكون في اثنين فصاعدا، لأن الماء يكون جمعاً وواحداً، وقيل: لأنهما لما اجتمعا صارا ماء واحداً.[1]

وقد قريء: "الماءان" لاختلاف النوعين، و: "الماوان" بقلب الهمزة واوا.[2]

ومعني تفجير الأرض عيوناً أي: جعل الأرض كلها كأنها عيون متفجرة، وأصله: وفجرنا عيون الأرض، فغير للمبالغة.[3] قال السدي: - وهو الكثير-، وفجرنا الأرض عيوناً أي: نبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً.[4]

وفي قوله تعالى: "وحملناه على ذات ألواح" أي: سفينة ذات أخشاب عريضة "ودسر" ومسامير، جمع دسر من الدَّسر وهو الدفع الشديد، وهي صفة للسفينة، أقيمت مقامها من حيث أنها كالشرح لها تؤدي مؤداها "تجري بأعيننا" برأي منا أي محفوظة بحفظنا "جزاء لمن كان كفر" أي: فعلنا ذلك جزاء لنوح، لأنه نعمة كفروها، فإن كل نبي نعمة من الله تعالى. ورحمة على أمته. ويجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير؟، وقريء: "لمن كفر"[5] أي للكافرين) [6]

---

(1) تفسير القرطبي ١٣٢/١٧.

(2) تفسير البيضاوي ٢٦٥/٥—٢٦٦، وقراءة: "الماوان" هي قراءة الجحدري وقراءة: "الماوان" قراءة الحسن قال القرطبي ١٣٢/١٧: "وهما خلاف المرسوم" وانظر ابن خالوية صـ١٤٧.

(3) البيضاوي ٢٦٥/٥-٢٦٦— النسفي ٤/ ١٩٥ — فتح القدير ١٢٢/٥.

(4) ابن كثير ٤/ ٢٦٤.

(5) وهي قراءة بزيد بن رومان وعيسي انظر المحتسب ٢٩٨/٢— ابن خالوية صـ١٤٧.

(6) تفسير البيضاوي ١٦٥/٥-١٦٦ بتصرف يسير- وانظر تفسير أبي السعود ١٦٩/٨.

قال العلامة القرطبي: (أي: على سفينة ذات ألواح ودسر، قال قتادة: يعني المسامير التي دسرت بها السفينة، أي: شدت، وقاله القرظي وابن زيد وابن جبير ورواه الوالبي عن ابن عباس، وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها الموج سميت بذلك: لأنها تدسر الماء أي: تدفعه، والدسر الدفع والمخر- ورواه العوفي عن ابن عباس قال: الدسر كالكل السفينة)[1]

المطلب السابع

دعاؤه بإهلاك قومه وإفنائهم من الوجود ودعاؤه بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين عامة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوَاْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً* رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[2]

قال نوح داعياً ربه تعالى: رب لا تترك على الأرض منهم أحداً، لأنهم إن بقوا كانوا خراباً ودماراً على الدنيا، لضلهم وإضلالهم العباد وإبعادهم عن الجادة والصواب. والآية: جاءت للتدليل بان ما يحيق بهم من عذاب هو بسبب كفرهم وجحودهم وضلالهم.

---

(1) تفسير القرطبي ١٨/ ١٣١.

(2) سورة: نوح - الآية: ٢٨

ونلحظ أن قوله - تعالى - قبلها: (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) [1] إلخ اعتراض وسط بين دعائه عليه الصلاة والسلام للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عددها نوح عليه السلام، وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها، لا أنها حكاية لنفس لإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من الأحوال والأقوال، وإلا لأخر عن حكاية دعائه هذا.[2]

ومعني: "ديارا" أي: أحدا، وهو مما يستعمل في النفي العام، فيعل من الدار أو الدور، وأصله ديوار، ففعل به ما بأصل سيد الأفعل، وإلا لكان: "دوارا" [3]. وقيل: معني: "ديارا" من يسكن الديار، وأصله: ديوار على فيعل من دار يدور، فقلبت الواو ياء، وأدغمت إحداهما في الأخرى، مثل: القيام، أصله: قيوام، وقال القتيبي: أصله في الدار أي: نازل بالدار يقال ما بالدار ديار أي: أحد، وقيل: الديار صاحب الديار [4] والمعني: لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته[5]. ويعني بالديار: من يدور في الأرض فيذهب ويجيء فيها، وهو فيعل من الدوران ديوارا اجتمعت الياء والواو فسبقت الياء الواو وهي ساكنة، وأدغمت الواو فيها وصيرتا ياء مشددة كما قيل: الحي القيام من قمت، وإنما هو قوام والعرب تقول: ما بها ديار ولا عريب ولا دوي ولا صافر ولا نافخ ضرمة، يعني بذلك

---

(1) سورة: نوح - الآية: ٢٥

(2) تفسير أبي السعود ٩/ ٤١.

(3) تفسير البيضاوي ٥/٣٩٦.

(4) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/٢٣٦ —زاد المسير٨/٣٧٥.

(5) فتح القدير ٥/ ٣٠١.

كله: ما بها أحد[1]. أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا نومرياً، وهذه من صيغ تأكيد النفي قال الضحاك: ديارا واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[2]

نقل ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم قوله: قرئ على يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني شبيب بن سعد بن سعيد عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة "قال ابن كثير: هذا حديث غريب ورجاله ثقات.[3]

وقوله: "﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾" قال ذلك لما جربهم واستقرى أحوالهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعرف شيمهم وطباعهم[4]. أي: إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، وكأنه اعتذار مما عسي يرد عليه من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن منكراً، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم قريباً من

---

(1) تفسير الطبري ٢٩/١٠٠.

(2) سورة: هود - الآية: ٤٣

(3) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٢.

(4) تفسير البيضاوي ٥/٣٩٦.

ألف سنة[1]، وقال المفسرون: إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً فلذلك علم الفاجر الخارج عن الطاعة.[2]

والمراد بعبادة في الآية: أي: من آمن معه من قومه، أو الذين يخلقهم بعد وقال ذلك لخبرته بأحوال قومه وأنهم لا فائدة من وجودهم أحياءً على ظهر الدنيا بل أن وجودهم فيها سيكون وبالا على غيرهم ممن يأتون بعدهم.

قال الإمام العلامة الطبري: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نوح في دعائه إياه على قومه: إنك يا رب إن تذر الكافرين أحياء على الأرض ولم تهلكهم بعذاب من عندك يضلوا عبادك الذين قد آمنوا بك فيصدوهم عن سبيلك، ولا يلدوا إلا فاجراً في دينك، كفاراً لنعمتك، وذكر أن قيل نوح هذا القول ودعاؤه هذا الدعاء كان بعد أن أوحي إليه ربه أن "لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ "[3] .....)[4]

أخرج عبد الرازق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا" قال: أمام والله ما دعا عليهم نوح حتى أوحي الله إليه أنه "لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن" فعند ذلك دعا عليهم، ثم دعا دعوة عامة فقال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[5]

---

(1) تفسير أبي السعود ٩/ ٤١.

(2) زاد المسير ٨/ ٣٧٥.

(3) سورة: هود - الآية: ٣٦

(4) سورة هود ٣٦- وانظر الطبري ٢٩/ ١٠١.

(5) تفسير عبد الرازق ٣/ ٣٢٠—الدر المنثور ٨/ ٢٩٥.

وقوله: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ" بن متوشلخ وشمخاً بنت أنوش وكانا مؤمنين، وقيل: أبوه لأمك بن متوشلخ، وأمه سمحاه بنت أنوش، وقيل أراد آدم وحواء، وقال سعيد بن جبير. أراد بوالديه: أباه وجده "ولمن دخل بيتي" منزلي أو مسجدي أو سفينتي "مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات" إلى يوم القيامة "ولا تزد الظالمين إلا تباراً" هلاكاً"[1]، وقال مجاهد: خساراً[2]

وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.[3]

وانتصاب: "مؤمنا" على الحال، أي: لمن دخل بيتي بصفة الإيمان، فيخرج من دخله غير منتصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذي قال: ﴿سَآوِيَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[4].

ورد عن النبي ﷺ: "من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح"[5]

وقال الضحاك في معنى: "بيتي" يعني: مسجدي [6] والآية تعم كل ذلك من إرادة بيته على الحقيقة أي: منزله، أو مسجده أو سفينته، إلا أن الأقرب حمل اللفظ على حقيقته من أن المقصود هو منزله الذي جعله محلاً لغفران الذنوب لمن قصده ودخله.

---

(1) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٩٦—فتح القدير ٥/ ٣٠٢.

(2) الدر المنثور ٨/ ٢٩٥.

(3) فتح القدير ٨/٢٩٥.

(4) سورة هود ٤٣- - وانظر فتح القدير ٥/٣٠٢.

(5) أورده ابن كثير في تفسيره ٤/٤٢٨.

(6) الدر المنثور ٨/٢٩٥.

قل ابن كثير: (ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أبنأنا سلم بن غيلان أن الوليد بن قيس التجيبي أخبره أنه سمع أبا سعيد الخدري أو عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا تصحب إلا مؤمناً ويأكل طعامك إلا تقي" ....[1]) [2]

وقوله تعالى: وللمؤمنين وللمؤمنات" دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة وقوله تعالى: "ولا تزد الظالمين إلا تباراً" قال السدي: إلا هلاكاً، وقال مجاهد: إلا خساراً أي: في الدنيا والآخرة.[3]

قال ابن عباس رضي الله عنهما تعالى عنهما: دعا نوح عليه السلام بدعوتين: إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأخرى على الكافرين بالتبار، وقد أجيبت دعوته في حق الكفار بالتبار، فاستحال أن لا تستجاب دعوته في حق المؤمنين.[4]

واختلف في صبيانهم حين أغرقوا فقيل: أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا، وقيل: علم الله براءتهم فأهلكوا بغير

---

(1) مسند أحمد ٣/٣٨— وأخرجه أبو داود كتاب الأدب باب "من يؤمر أن يجالس" حديث ٤٨٣٢ جـ٤ صـ٢٥٩ — والترمذي كتاب الزهد باب "ما جاء في البغي المؤمن" حديث جـ٤ صـ٦٠٠ وقال عقبه: "إنما تعرفه من هذا الوجه".

(2) ابن كثير ٤/٤٢٨.

(3) ابن كثير ٤/٤٢٩.

(4) تفسير النسفي ٤/٢٨٥.

عذاب والله أعلم [1]. وقد سئل الحسن عن ذلك فقال: علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب.[2]

قال الألوسي: (نعم الحكمة في إهلاكهم زيادة عذاب في آبائهم وأمهاتهم إذا أبصروا أطفالهم يغرقون، وزعم بعضهم أن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة، فلن يكن معهم صبي حين أغرقوا، ويحتاج إلى نقل صحيح وحكم الله عز وجل لا تحصي، فافهم).[3]

---

(1) المصدر السابق ٤/ ٢٨٥.

(2) روح المعاني ٢٩/ ٨٠.

(3) المصدر السابق ٢٩/ ٨٠.

الخاتـــمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد،،

فقد عشنا مع آيات دعاء نبي الله تعالى نوح عليه السلام ورأينا ما كان عليه من صبر وجلد في دعوته إلى الله تعالى، حيث استمر يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى الواحد الأحد وترك عبادة ما سواه، قرابة الألف عام، وقد رأي منهم صنوفاً من الأعراض، وألواناً من العذاب، بدلا من أن يقابلوا دعوته بالفرح والسرور، لأن في ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولكن كانت الأمور على غير ما كان يرجوا نوح، فلما أيس من إيمانهم وتقبلهم الدعوة تضرع إلى الله تعالى راجيا منه قبول دعائه عليهم، بأن ينقذه منهم، وأن يطهر الأرض من وجودهم فيها؛ لأنهم وباء يجب تطهير الأرض منهم ومن ذرياتهم، فهم إن بقوا أو بقى أحد من نسلهم فلن يكون منهم إلا الفسق والفجور، والكفران والعصيان، لأنه جربهم وعاش معهم قروناً عدة دون أن يسلك الإيمان إلى قبولهم، أو يجد له طريقاً إليها.

كما رأينا أن دعوته عليهم بالهلاك والدمار إنما كانت أيضاً عن وحي من الله تعالى، لأنه كما ورد لم يدع نبي على قومه إلا بعد إذن الله تعالى له بذلك.

وأيضاً نرى: أن وجود هذه القصة في القرآن العظيم إنما هو دعوة صريحة للأمة أن يتعظوا بها، ويعتبروا مما جرى لقوم نوح، لأنه لا ينفع عند الله تعالى إلا الإيمان والصلاح، وأنه لا ينفع عنده شفاعة والد ولا قريب،لأنه ليس مع الكفر شفاعة أو واسطة.

ولعل ما لمسناه من صبر نوح ومصابرته هو الذي جعله من جملة أولي العزم من الرسل، بل هو في مقدمتهم زمنا، وثانيهم ذكراً في القرآن بعد سيّدنا رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى: قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا)[1].

وقد كان نوح مثلاً في الصبر لمن بعده من الأنبياء ومنهم سيدنا محمد ﷺ حيث قال تعالى له: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) [2] فهم عليهم صلاة الله وسلامه مثل عليا للصبر والجلد وتحمل المشاق في سبيل إنجاز ما كلفهم الله تعالى به من تبليغ الرسالات لإنقاذ الأمم من المهالك، فكانوا -بحق- هم أولى الناس على الإطلاق بتقدير الله تعالى لهم، وإنعامه وتفضله عليهم بالخير والفوز في الدنيا والآخرة.

ويحسن بالدراسين لكتاب الله تعالى والباحثين عن كنوزه ودرره التقاط مثل هذه اللألئ والدرر التي حكاها القرآن في سوره وآياته، دارسين لها، ومؤكدين فيها على مواضع العبرة والعظة في كل جزئية منها، وداعين الأمة إلى النظر المستمر إلى مثل هذا القصص العظيم الذي نقرؤه في كتاب الله تعالى.

وفي الأخير نسأل الله تعالى والتوفيق والهداية إلى أقوم طريق إنه سبحانه سميع قريب مجيب الدعاء.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور/ محمد عبد الجليل حسن محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية الدراسات الإسلامية بنين بأسوان

---

(1) سورة: الأحزاب - الآية: ٧

(2) سورة: الأحقاف - الآية: ٣٥

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم: جل من أنزله.

٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للبنا ط دار الكتب العلمية بيروت — الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.

٣- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ط، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٧٣هـ و ط تحقيق السيد/ أحمد صقر، ط المكتبة العلمية.

٤- تفسير الألوسي: المسمي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥- تفسير أبي السعود المسمي: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم"، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦- تفسير البغوي المسمي: "معالم التنزيل" ط دار المعرفة بيروت — الثانية- ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م.

٧- تفسير البيضاوي، ط دار الفكر بيروت ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٨- تفسير الجلالين، ط دار الحديث بالقاهرة — الأولى- بدون تاريخ.

٩- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.

١٠- تفسير الطبري المسمي: "جامع البيان عن تأويل آي اقرآن" ط دار الفكر بيروت، بيروت ١٤٠٥هـ.

١١- تفسير عبد الرازق الصنعاني المسمي: "تفسير القرآن العزيز" تحقيق د.مصطفى مسلم محمد، ط مكتبة الرشد بالرياض- الأولى- ١٤١٠هـ.

١٢- تفسير القرطبي المسمي: "الجامع لأحكام القرآن" ط دار الشعب بالقاهرة — الثانية- ١٣٧٢هـ

١٣- تفسير ابن كثير المسمي: "تفسير القرآن العظيم" ط بيروت ١٤٠١هـ

١٤- تفسير النسفي.

١٥- تفسير الواحدي المسمي: "الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، تحقيق صفوان عدنان داودي، ط دار القلم —الدار الشامية بيروت، دمشق —الأولى- ١٤١٥هـ

١٦- حجة القراءات لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، ط مؤسسة الرسالة —الثانية- بيروت ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م.

١٧- الحجة في القراءات السبع لابن خالوية، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، ط دار الشروق، بيروت، الرابعة — ١٤٠١هـ

١٨- الدعاء لمحمد بن إبراهيم الحمد.

١٩- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ط المكتب الإسلامي، بيروت —الثالثة- ١٤٠٤هـ

٢٠- السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق د.شوقي ضيف، ط دار المعارف بالقاهرة — الثانية- ١٤٠٠هـ

٢١- سنن أبي داود تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر بيروت.

٢٢- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣- سنن النسائي الكبرى، تحقيق د. عبد الغفار البنداري وسيد كسرى حسن، ط دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤١١هـ ١٩٨٦م.

٢٤- سنن النسائي المجتبى، تحقيق عبد الفتاح أو غدة، ط مكتب المطبوعات الإسلامية حلب — الثانية- ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٥- سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر بيروت.

٢٦- سيرة ابن هشام، ط دار الجيل بيروت- الأولى- ١٤١١هـ

٢٧- شأن الدعاء للخطابي.

٢٨- شرح الزرقاني على المواهب، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، ط دار الكتب العلمية، بيروت —الأولى- ١٤١١هـ

٢٩- الصحاح للجوهري، ط دار العلم للملايين — الأولى — ١٣٧٦هـ-١٩٥٦م.

٣٠- صحيح البخاري المسمي: "الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق د/ مصطفى ديب بغا، ط دار ابن كثير اليمامة بيروت- الثالثة- ١٤٠٧هـ-١٩٨٧.

٣١- صحيح الجامع، لمحمد ناصر الدين الألباني.

٣٢- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط مؤسسة الرسالة بيروت — الثانية — ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٣٣- صحيح مسلم المسمي: "الجامع الصحيح"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٤- الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، تحقيق على محمد الجباوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط دار المعرفة بيروت — الثانية — بدون تاريخ.

٣٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، ط دار المعرفة بيروت ١٣٨٩هـ

٣٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني، ط دار الفكر، بيروت.

٣٧- لباب النقول، في أسباب النزول للسيوطي، ط دار إحياء العلوم ، بيروت.

٣٨- لسان العرب، لابن منظور ط، دار المعارف بمصر، ط دار صادر، بيروت.

٣٩- المحتسب لابن جني، تحقيق على النجدي ناصف، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط القاهرة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٤٠- مختار الصحاح للرازي، ط مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق محمود خاطر، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٤١- مختصر شواذ القرآن، لابن خالوية عني ينشره ج، برجستراسر، ط مكتبة المتنبي، بالقاهرة.

٤٢- المستدرك على الصحيح للحاكم، تحقيق مصطفي عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية، بيروت —الأولى- ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٤٣- مسند أبي يعلي، تحقيق حسين سليم أسد، ط دار المأمون للتراث دمشق، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٤٤- مسند الإمام أحمد، ط مؤسسة قرطبة — مصر.

٤٥- مسند الشهاب، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت — الثانية- ١٤٠٧هـ — ١٩٨٦م.

٤٦- مسند الطيالسي، ط دار المعرفة، بيروت.

٤٧- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط مكتبة الرشد بالرياض — الأولى- ١٤٠٩هـ

٤٨- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق د.عبد الجليل شلبي، ط دار الحديث بالقاهرة —الأولى- ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٤٩- معاني القرآن للنحاس تحقيق محمد على الصابوني، ط جامعة أم القرى بمكة المكرمة —الأولى- ١٤٠٩م.

٥٠- غريب القرآن، لابن قتيبة.

٥١- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق سيد كيلاني، مصطفى الحلبي بالقاهرة، ط دار الحديث بالقاهرة.

٥٢- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ط دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ، ط دار الفكر، بيروت.